سلسلة رسائل الفضيلة ١٨





مقاصد الحج

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع

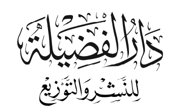
سلسلة رسائل الفضيلة

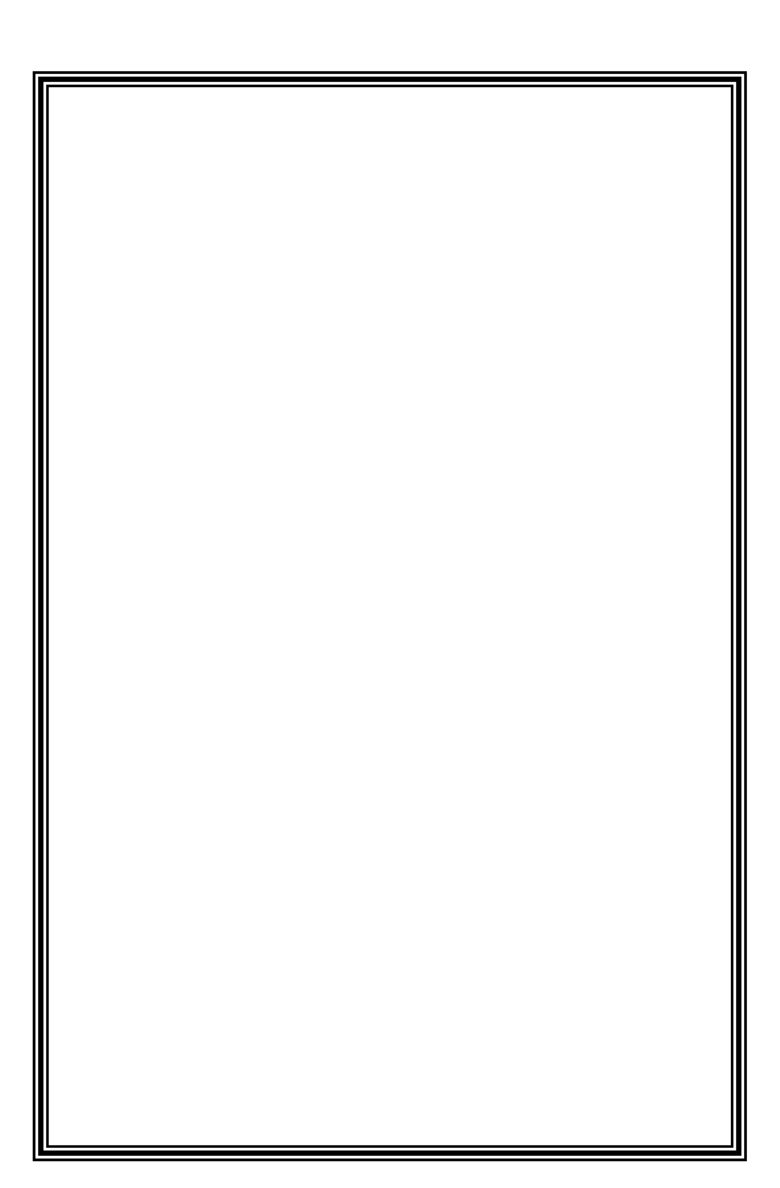
(١٨)



إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، فرضَ على عباده حجَّ بيتِه الحرام، ورتَّب على ذلكَ جزيلَ الأجر ووافرَ الإنعام، فمَن حجَّ البيتَ ولم يرفُث ولم يفسُق رجعَ من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه نقيًّا من الذُّنوب والآثام، وأشهد أن لا إله إلَّا اللهُ وحده لا شريك له، المَلِكُ العلَّام، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله خيرُ من صلَّى وحجَّ وصام، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه الخيار الأعلام.

أمَّا بعد:

حجَّاج بيت الله الحرام! نحمد الله عَزَّوَجَلَّ حمدًا كثيرًا طيِّبًا

مباركًا فيه أن يسَّر لنا جميعًا المجيءَ لأداء هذه الطَّاعة والقدومَ للقيام بهذه العبادة، وأن أكرمنا ﷻ بأن جعلنا في هذا العام من وفود الرَّحمن، وفي الحديث يقول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**الْحُجَّاجُ والعُمَّارُ وَفْدُ الله؛ دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ، وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ**»[1]، فللَّه الحمدُ حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضَى، له الحمدُ على كلِّ نعمةٍ أنعَم بها علينا في قديمٍ أو حديثٍ، أو سرٍّ أو علانيةٍ، أو خاصَّةٍ أو عامَّةٍ، ونسألُه عَزَّ وَجَلَّ أن يُوزِعنا جميعًا شُكر نعمتِه، وحُسنَ عبادته، وأن يوفِّقَنا لكلِّ خيرٍ يحبُّه ويرضاه.

حجَّاجَ بيتِ الله الحرام! موضوع هذه الكلمة «**مقاصد الحجِّ**»، موضوعٌ عظيمٌ للغاية، وذو أهميَّةٍ بالغةٍ، وكلُّ واحدٍ منَّا يحتاج بين يدَي أدائه لحجِّ بيتِ الله الحرام أن يُذكَّر بمقاصِد الحجِّ العِظام، ليؤدِّي مناسكَه وليقوم بشعائرِه محقِّقًا

(١) رواه البزَّار في «مسنده» كما في «كشف الأستار» (١١٥٣)، وحسَّنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٨٢٠).

تلك المقاصد، ومتمِّمًا تلك الأهداف.

والحجُّ ركنٌ من أركانِ الإسلام، وهو طاعةٌ عظيمةٌ وعبادةٌ جليلةٌ، وقربةٌ من أعظم القرب الَّتي يتقرَّب بها المؤمنون إلى الله ﷻ، له مقاصدُ نبيلةٌ وأهدافٌ جليلةٌ جديرٌ بنا أن نستذكرها، وهي كثيرةٌ لكنَّني أجتزئ بذِكر أهمِّها وأعظمِها، ومنَ الله وحدَه أستمدُّ العونَ وأستَمنحُ التَّوفيقَ، وأسأله سبحانَه أن يتقبَّل هذا الجهدَ، وأن يُعظِمَ البركةَ فيه إنَّه وحده الوليُّ لا شريكَ له، وبه وحده التَّوفيق.



تحقيق التَّوحيد

من مقاصد الحجِّ العظيمة وهو أعظمها وأجلُّها: تحقيق التَّوحيد لله ـ تبارك وتعالى ـ والبراءة مِن ضدِّه وهُو الشِّرك بالله والخلوص منه؛ فهذَا أجلُّ مقصدٍ وأعظم هدفٍ؛ لأنَّ التَّوحيد هو الأساس الَّذي خلقَنا الله عَزَّوَجَلَّ لأجله وأوجدنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لتحقيقه.

ومِن خِلال مناسك الحجِّ العَظيمة وشعائره الجليلة ومشاعره المباركة تظهر جليًّا مكانة التَّوحيد العظمى ومنزلته العليا وأنَّه أساسٌ يُبنى عليه دين الله عَزَّوَجَلَّ وتقام عليه كلُّ طاعةٍ يتقرَّب بها المؤمن إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل إنَّ كلَّ طاعةٍ

وعبادةٍ لا تكون قائمةً على توحيد الله والبراءة من الشِّرك فإنَّ الله ﷻ لا يقبلها من العامل؛ ولهذا قال جابرٌ رضي الله عنه ـ كما في «صحيح مسلم» ـ في سياقه لحجَّة النَّبيِّ ﷺ: «فَأَهَلَّ النَّبيُّ ﷺ بالتَّوحيد: **لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ والنِّعْمَةَ لَكَ والمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ**»[1]؛ وهذه الكلمات العظيمات كلمات توحيدٍ وإخلاصٍ لله ـ جلَّ وعلا ـ وبراءةٍ من الشِّرك، بينما كان المشركون يُهِلُّون بالشِّرك والتَّنديد، ففي «صحيح مسلم» عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «كان المشركون يقولون لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قال: فيقول رسول الله ﷺ «**وَيْلَكُمْ قَدْ قَدْ**»، فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يقُولون هذا وهُم يطوفُون بالبَيت»[2].

وفي قوله: «**لا شريكَ لهُ**» وقَد تكرَّرت في التَّلبية مرَّتين، مرَّةً عقب إجابته بقوله «**لبَّيك**»، ومرَّةً عقب قوله: «**إنَّ الحَمْدَ**

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٢) «صحيح مسلم» (١١٨٥).

والنِّعْمَةَ لك والمُلْكَ»؛ فالأوَّل يتضمَّن أنَّه لا شريك له في إجابة هذه الدَّعوة، والثَّاني يتضمَّن أنَّه لا شريكَ له في الحمد والنِّعمة والمُلك.

وهو إخلاصٌ لله في نوعي التَّوحيد العِلمي والعَملي؛ العَملي في قولك: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ»، والعِلمي في قولكَ: «إِنَّ الحَمد والنِّعمةَ لكَ والملك، لا شريكَ لك».

وإذا تقرَّر أنَّ الحمد كلَّه لله، والنِّعمةَ كلَّها من الله، والملكَ كلَّه له، ليس له شريكٌ في ذلك بوجهٍ من الوجوه فليُفرَد وحده بالتَّلبية والخضوع والمحبَّة والانقياد والطَّاعة والإذعان، وكيف يُجعل مع الله ﷻ شريكًا في العبادة مَن لا يملكُ في هذَا الكَون من قِطْميرٍ، وليسَ له معَ الله ﷻ شركةٌ في الملك، ولا يملكُ نفعًا ولا دفعًا، وليسَ بيده عطاءٌ ولا منعٌ ـ تعالى الله عمَّا يشركون ـ، بل إنَّ الأمر كلَّه لله لا شريك له، وهذا مِن أَبْيَن ما يكون دلالةً على فسَاد الشِّرك، وأنَّ أهلَه مِن أسْفَه النَّاس وأضلِّهم عن سَواء السَّبيل.

وقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في الميقات عندما أهلَّ بالحجِّ: «**اللَّهُمَّ حَجَّةٌ لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَة**»[1]، ثمَّ مضى إلى مكَّة ملبِّيًا بكلمات التَّوحيد العظيمة المشتَملة على التَّوحيد وتحقيقِه والبراءةِ مِن ضدِّه، يردِّدُها ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في طريقه إلى مكَّة وفي تنقُّلاته بين المشاعر.

ثمَّ إنَّ الطَّوافَ بالبَيت، والسَّعيَ بينَ الصَّفا والمروة، والوقوفَ بعرفاتٍ، والوقوفَ بمُزدَلفة، والقيامَ بأعمال الحجِّ الأخرى كلُّ ذلك طاعاتٌ وعباداتٌ قائمةٌ على التَّوحيد؛ يجبُ على كلِّ حاجٍّ أن يقصدَ بهذه الأعمال كلِّها والطَّاعات جميعِها وجهَ الله ﷻ، فإنَّ اللهَ لا يقبلُ عملَ عاملٍ إلَّا إذا كان قائمًا على التَّوحيد له ﷻ، ولهذا جاء في الحديث القُدسي أنَّ الله ﷻ يقول: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عن الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا**

(١) رواه ابن ماجه في «السُّنن» (٢٨٩٠) وإسناده فيه ضعفٌ، وقد أورد الشَّيخ الألبانيُّ رحمه الله في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٢٦١٧) ما يعضده ويكونُ به حسنًا لغَيره.

أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[1].

وعلى الملبِّي الَّذي أكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بالتَّلبية بهذه الكلمات العظيمة أن يستَحضر معانيها وأن يعيَ دلالاتِها وأن يسعَى حياتَه في تحقيق التَّوحيد الَّذي دلَّت عليه؛ فيكون مُخْلِصًا دينه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا يسألُ إلَّا الله، ولا يستَغيث إلَّا بالله ولا يتوكَّل إلَّا على الله، ولا يذبحُ إلَّا لله، ولا يَنذُر إلَّا لله، ولا يصرفُ شيئًا من العبادة إلَّا لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ]، بحيث يكون مستمسِكًا بالتَّوحيد، مُحافظًا عليه مراعيًا لحقوقِه، مجانبًا لنواقضِه وما يضادُّه منَ الشِّرك بالله، حذِرًا تمامَ الحذَر من الوقُوع فيه، أو في شيءٍ من أسبابه ووسائلِه وطُرقِه، جاعلًا التَّوحيد أكبر مقاصدِه وأهمَّ غاياتِه، وعنايته به مقدَّمةً على العناية بكلِّ أمرٍ؛ على هذا يحيى وعليه يموتُ وعليه يُبعث بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥).

الفَوز برضا الله ﷻ والنَّجاة من ناره

مِن مقاصد الحجِّ: الفوز برضا الله ﷻ والنَّجاة من ناره والفوز بغُفرانه ورحمتِه ﷻ؛ وقَد دلَّ على هذا المقصَد العَظيم أدلَّةٌ كثيرةٌ منها: قوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَنْ حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»[1]، وقوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**الحَجُّ المَبْرُورُ لَيسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ**»[2]، وقوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في حديثه لعَمْرو بن العاص: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا**

(١) رواه البخاري (١٥٢١) ومسلم (١٣٥٠).

(٢) رواه البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩).

كَانَ قَبْلِهَا، وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»[1]، وقوله ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلحَجَّةِ المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الجَنَّةُ»[2].

والفَوز برضوان الله عَزَّوَجَلَّ هو أكبر المِنَن وأجلُّها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ].

فذكر ـ جلَّ وعلا ـ أوَّلًا أعمالهم مِن طاعةٍ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

(١) رواه مسلم (١٢١).

(٢) رواه التِّرمذي (٨١٠)، والنَّسائي (٢٦٣١) من حديث ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسنادٍ حسن.

ولرسوله ﷺ، وقيامٍ بفرائض الإسلام وواجبات الدِّين، وعملٍ على تِبيان دين الله عَزَّوَجَلَّ نصحًا لعباده وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر ثمَّ أتبع ذلكَ ـ جلَّ شأنه ـ بذِكر ما أعدَّ لهم ذكرًا مُتدرِّجًا؛ فبدأه بذِكر أنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعدَّ لهم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، ثمَّ أتبَعَ ذلكَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذكر المساكن العَظيمة والغُرفات العليَّة الَّتي أعدَّها لهم نُزُلًا ومسكنًا في تلك الجنَّات، ثمَّ ذَكر الكرامةَ الكبرى والمنَّةَ العُظمى ألا وهيَ الفوز بالرِّضوان قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، ثمَّ ختَم السِّياقَ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

فقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، وإن كانَ لم يُذكَر المفضَّلُ عليه بعد قولِه: ﴿أَكْبَرُ﴾ للعِلم به وبيانًا لِعظم رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجلالةِ شأنه وأنَّه أكبر من كلِّ نعيمٍ وأجلُّ من كلِّ عطيَّةٍ، وذلك أنَّ رضوانَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صفةٌ من صفاته عَزَّوَجَلَّ، وجنَّتُه وما فيها من كراماتٍ وعطايا وهِباتٍ مخلوقٌ من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ، فرضوان الله أكبرُ من كلِّ

نعيمٍ؛ أكبر من الجنَّة وأكبرُ مِن كلِّ نعيمٍ في الجنَّة إذ هو أعظمُ كرامةٍ وأجلُّ عطيَّةٍ.

ويوضِّح هذا المعنى في الآية ـ وإن كانَ واضحًا ظاهرًا ـ ما خرَّجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» مِن حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«إِنَّ اللهَ ـ تبارك وتعالى ـ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ فيقُولون: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وسَعدَيْكَ، فيقول: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فيقولون: وما لَنَا لَا نَرْضَى وقد أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِن خَلْقِكَ!! فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ! وأَيُّ شيءٍ أفضلُ من ذلك!! فيقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»**[1]، وروى الحاكم في «مستدركه» بإسنادٍ صحيحٍ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ يَقُولُ اللهُ عز وجل: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا فَأَزِيدُكُمْ؟**

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٤٩)، «صحيح مسلم» (٢٨٢٩).

فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا وَمَا فَوْقَ مَا أَعْطَيْتَنَا؟ قال: يَقُولُ: رِضْوَانِي أَكْبَرُ»[1]، أي: أكبر من الجنَّة وما فيها.

فينبغي على كلِّ مسلمٍ أن يجعل هذا المقصد نصبَ عينَيه، وأن يكونَ حاضرًا في قلبه، وأن يلتَمس في حجِّه لبيت الله الحرام الفَوزَ برضوان الله ـ تبارك وتعالى ـ وغفرانِه والعتقِ من النِّيران، وأن يحرص على حضوره في ذهنه في كلِّ مقامٍ وفي كلِّ موقفٍ وفي كلِّ حالٍ ـ في الحجِّ وغيره ـ؛ لأنَّ هذه الآية إذا قامَت في القَلب وكان ما دلَّت عليه هو مقصدَ الإنسان وغايتَه ومطلبَه؛ فإنَّ أحوالَه كلَّها تصلح وأمورَه كلَّها تطيبُ.

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٤٦) وقال: «صحيحٌ على شرط الشَّيخيْن ولم يخرِّجاه»، ووافقَه الذَّهبي، ويشهد له ما قبلَه.

تحقيق تقوى الله عَزَّوَجَلَّ

من مقاصد الحجِّ: تحقيق تقوَى الله ـ جلَّ وعلا ـ، وقَد أكثَر اللهُ عَزَّوَجَلَّ في آيات الحجِّ على قلَّتها من الوصيَّة بالتَّقوى؛ لأنَّه يحصل في الحجِّ من أسباب التَّقوى ما لا يحصل في غيره، وذلكَ مع الوعي الصَّحيح بحقيقَة الحجِّ ومغزَاه، وقد تكرَّرت الوصيَّة بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ في سياق آيات الحجِّ من سورة البقرة.

ففي الآية الأولى من هذه الآيات قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٩٦﴾، وفي أثناء هذه الآيات قال سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٧﴾، وختَم ـ جلَّ وعلا ـ آياتِ الحجِّ بقوله:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾، وقال سبحانه وتعالى في سورة الحجِّ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾، وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧].

والتَّقوى هي أعظمُ وصيَّةٍ وخيرُ زادٍ ليوم المعاد، وهي وصيَّةُ الله سبحانه وتعالى للأوَّلين والآخرين مِن خلقِه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وهي وصيَّة النَّبيِّ الكريم ﷺ لأمَّته، فقَد كان ﷺ إذا بعَث أميرًا على سريَّةٍ أوصاه في خاصَّة نفسه بتقوى الله عز وجل وبمَن معه من المسلمين خيرًا، وكان كثيرَ الوصيَّة بها في خُطبه، ولمَّا خطب النَّاسَ في حجَّة الوداع يوم النَّحر وصَّى النَّاسَ بتقوى الله عز وجل، ولم يزَل السَّلف الصَّالح يتواصَوْن بها، وذلك لأنَّها خيرُ زادٍ يبلِّغ إلى رضوان الله عز وجل، ولمَّا قال رجلٌ لعُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: اتَّق الله، أجابه عمرُ بقوله: «لا خَيرَ فيكُم إن لم تقولوها، ولا

خير فينَا إذا لم نقْبَلْها»، والنُّقول عن السَّلف في هذا كثيرةٌ[1].

فما أجملَ أن يعود الحاجُّ مِن حجِّه متزوِّدًا بهذا الزَّاد العظيم المبارك؛ فإنَّ وصيَّةَ الله عَزَّوَجَلَّ بالتَّقوى المتكرِّرة في آيات الحجِّ، ودعوتَه سبحانه لأُولي الألباب إلى تقواه تدلُّ على أنَّ أهلَ العُقول والألباب ينبغي عليهم ـ وقَد أكرمَهُم الله بالحجِّ ـ أن يجعلوا تقوى الله عَزَّوَجَلَّ مِن أكبر مقاصِدِهم في حجِّهم، وأن يُعمِلوا عقولَهم وألبابَهم في تلك المشاعِر العَظيمة ليَستَفيدوا منها تقوى الله، فالحجُّ مدرسةٌ عظيمةٌ للتَّقوى وبابٌ عظيمٌ من أبوابها، وشعائره تُعَدُّ أعظمَ مُعينٍ على تحقيق تقوى الله ـ جلَّ وعلا ـ؛ وذلكَ لما في أعمال الحجِّ من رياضةٍ للنُّفوس وتمرينٍ لها على لزوم طاعَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والإقبال على عبادته والبُعد عن الحالة الَّتي كان عليها العبد قبلُ منَ التَّفلُّت وعدم الانضباط والالتزام بأوامر الله ـ تبارك وتعالى ـ.

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص: ١٥٠ ـ ١٥١).

◙ المقصد الرَّابع:

إقامة ذكر الله سبحانه وتعالى

من مقاصد الحجِّ: إقامة ذكر الله سبحانه وتعالى؛ بل إنَّ الأعمال الصَّالحة كلَّها شُرعت لأجله، وما تقرَّب متقرِّبٌ إلى الله سبحانه وتعالى بمثله؛ فالصَّلاة شُرعت لإقامة ذكر الله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، والحجُّ والصِّيام وكلُّ طاعةٍ إنَّما شُرِعَت لإقامة ذكر الله عزَّ وجلَّ، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، ويقول ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ

مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [سُورَةُ الحَجِّ].

فذِكر الله عَزَّوَجَلَّ مِن مقاصد الحجِّ؛ بل إنَّ الحجَّ وغيرَه من الطَّاعات إنَّما شُرِع لإقامة ذِكر الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قال نبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ كما في «مسند الإمام أحمد» وغيره عن أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوَافُ بالبَيْتِ وبالصَّفَا والمَرْوَةِ ورَمْيُ الجِمَارِ لإِقَامَةِ ذِكْرِ الله عَزَّوَجَلَّ**»[1]، وذِكر النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ لهذه الأعمال الثَّلاثة الطَّواف والسَّعي والرَّمي ليس على سَبيل الحصر وإنَّما للتَّمثيل؛ لأنَّ أعمالَ الحجِّ كلَّها إنَّما شُرعت لإقامة ذِكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

فذَكر الله عَزَّوَجَلَّ هو أجلُّ الأعمال وأعظم الطَّاعات؛ ولهذا يقولُ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ والوَرِقِ ـ أي الفِضَّة ـ، وخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ ويَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟**»

---

(١) «مسند الإمام أحمد» (٢٤٣٥١).

قالوا: بَلَى، قال: «**ذِكْرُ الله تَعَالَى**»[1]، والله تعالى يقول: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [سورة الأحزاب]، ويقول ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب].

فذكر الله عَزَّوَجَلَّ طاعةٌ عظيمةٌ وعبادةٌ جليلةٌ يجب أن تكون مع العبد في حجِّه وصلاتِه وصيامِه وجميع طاعاتِه؛ لأنَّ أعظمَ النَّاس أجرًا في كلِّ طاعةٍ أكثرُهم فيها ذكرًا لله، روى الإمام أحمد والطَّبراني عن معاذ بن أنسٍ الجُهَني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ رجلًا سأله فقال: أَيُّ الجهادِ أعظمُ أَجْرًا؟ قال: «**أَكْثَرُهُمْ لله ـ تبارك وتعالى ـ ذِكْرًا**»، قال: فأَيُّ الصَّائمين أعْظمُ أجرًا؟ قال: «**أَكْثَرُهُمْ لله ـ تبارك وتعالى ـ ذِكْرًا**»، ثُمَّ ذكر لنا الصَّلاة والزَّكاة والحجَّ والصَّدقةَ كُلُّ ذلك

(١) رواه التِّرمذي (٣٣٧٧).

رسولُ الله ﷺ يقول: «**أَكْثَرُهُمْ لله ـ تبارك وتعالى ـ ذِكْرًا**»، فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه لعُمَر رضي الله عنه: يا أبا حفصٍ ذهب الذَّاكِرُونَ بكُلِّ خيرٍ!! فقال رسول الله ﷺ: «**أَجَلْ**»[(١)].

قال العلَّامة ابن القيِّم: «إنَّ أفضلَ أهل كلِّ عملٍ أكثرُهم فيه ذكرًا لله عزَّ وجلَّ، فأفضلُ الصُّوَّام أكثرُهم ذكرًا لله عزَّ وجلَّ في صومِهم، وأفضلُ المتصدِّقين أكثرُهم ذكرًا لله عزَّ وجلَّ، وأفضلُ الحُجَّاج أكثرُهم ذكرًا لله عزَّ وجلَّ، وهكذا سائر الأعمال»[(٢)].

وهذه قاعدةٌ جليلةٌ شريفةٌ متناوِلةٌ عمومَ العبادات؛ فأعظم النَّاس أجرًا في كلِّ طاعةٍ أكثرُهم ذكرًا لله فيها، والمراد بالذِّكر: الذِّكر بالقلب والذِّكر باللِّسان، وهما أرفع مراتب الذِّكر؛ لأنَّ مراتب الذِّكر ثلاثةٌ: الذِّكر بالقلب

---

(١) «مسند الإمام أحمد» (١٥٦١٤)، و«المعجم الكبير» للطَّبراني (٢٠/ ١٨٦ ـ رقم ٤٠٧) وهو حديثٌ حسنٌ بما له من شواهد.

(٢) «الوابل الصَّيِّب» (ص ١٨١ ـ ط.المجمع).

واللِّسان، ثمَّ الذِّكر بالقلب وحده، ثمَّ الذِّكر باللِّسان وحده.

وأرفعُ هذه المراتب وأجلُّها ذكر الله بالقلب واللِّسان معًا.

فأجلُّ النَّاس وأعظمُهم وأفضلُهم في كلِّ طاعةٍ أكثرُهم ذكرًا لله ﷻ فيها، فأعظمُ المصلِّين أجرًا أكثرُهم في صلاتهم ذكرًا لله، وأعظم الصَّائمين أجرًا عند الله أكثرهم ذكرًا في صيامهم لله، وأكثر الحجَّاج أجرًا عند الله أكثرهم ذكرًا لله في حجِّهم، وأكثر المعتمِرين أجرًا عند الله عَزَّوَجَلَّ أكثرُهم ذكرًا لله ﷻ في عُمرتِهم، وهكذا في كلِّ طاعةٍ، فالنَّاس يتفاوتون في أجورهم في طاعاتِهم بحسب ذِكرهم لله عَزَّوَجَلَّ قلَّةً وكثرةً.

ولهذا؛ فإنَّ الحجَّاج ليسوا في حجِّهم على درجةٍ واحدةٍ، وليس أجرهم فيه سواءً؛ لأنَّ فيهم المكثِرَ مِن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وفيهم المتوسِّطَ، وفيهم المُقِلَّ، وفيهم الغافلَ اللَّاهي المُعرِضَ؛ والله المستعان.

فينبغي على الحاجِّ أن يحفظ وقته في حجِّه وأن يحرص

فيه على الإكثار مِن الذِّكر لله ﷻ؛ قراءةً للقرآن، وتلبيةً، وتسبيحًا، وتحميدًا، وقراءةً لكُتب العلم، ونحو ذلك، ليعظُمَ أجرُه في حجِّه وليفُوزَ فيه بجزيل الثَّواب.



تقوية الإيمان

من مقاصد الحجِّ: تقويةُ الإيمان؛ ومعلومٌ أنَّ الإيمانَ يزيد وينقص، ويقوى ويضعُف، يزيد بذكر الله وطاعته والتَّوبة إليه وحُسن الإقبال عليه ـ تبارك وتعالى ـ، وينقص بالغفلة واللَّهو والمعاصي والذُّنوب، والحجُّ يُعَدُّ مجالًا عظيمًا لإصلاح النُّفوس وتهذيب القلوب وزيادة الإيمان، فكم فيه مِن الدُّروس الرَّائعة والعِبَر المؤثِّرة في إقبال القُلوب على الله عَزَّوَجَلَّ، وشدَّة رَغَبِها ورَهَبِها ورجائها وخوفها، وكثرة رجوعها وإنابتها، فكَم من دَمعةٍ صادقةٍ في الحجِّ أُريقَت، وكم مِن توبةٍ نصوحٍ قُبلت، وكم

من عثرةٍ أُقيلت، وكم من خطيئةٍ حُطَّتْ، وكم من دعاءٍ خاشعٍ أجيب، وكم من رقبةٍ من النَّار أُعتقت.

ومجالات تقوية الإيمان وأسبابُ زيادته في الحجِّ عديدةٌ ومتنوِّعةٌ، فهو يهدمُ ما كان قبلَه، والمبرورُ منه ليس له جزاءٌ إلَّا الجنَّة، ومَن أدَّاه بلا رفَثٍ ولا فسوقٍ خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه، وهو ينفي الذُّنوبَ كما ينفي الكيرُ خبَثَ الحديد، كما صحَّت بذلكَ الأحاديثُ عن رسول الله ﷺ.

وكم كان الحجُّ نقطةَ تحوُّلٍ في حياة كثيرٍ من النَّاس من سيِّءٍ إلى حسنٍ، ومن حسنٍ إلى أحسنَ، والشَّواهدُ على هذا والوقائعُ المؤكِّدةُ له تفوق الحصر.

وكم مِن حاجٍّ تحرَّى مواطنَ الإجابة في الحجِّ ومدَّ يديه إلى ربِّه خاشعًا متذلِّلًا طامعًا في فضله العظيم، وسأله أن يُجدِّد الإيمانَ في قلبه وأن يثبِّته عليه، وأن يصرفَ عنه الفتنَ ما ظهر منها وما بطن، وأن يُصلحَ له دينَه ودنياه وآخرتَه، وأن يُزيِّنه بزينة الإيمان، وأن يجعله من الهُداة المهتدين، والله عَزَّ وَجَلَّ

لا يُخيِّبُ عبدًا دعاه ولا يردُّ عبدًا ناجاه، وهو القائلُ سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]

وثبتَ في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**الحُجَّاجُ والعُمَّارُ وَفْدُ اللهِ؛ دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ، وسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ**»[1].

وتأمَّل حالَ الحاجِّ الَّذي تركَ بلَدَه وأهلَه وتجارتَه ومصالحَه، وتكبَّد مشقَّةَ السَّفر وعناءَه، ثمَّ لمَّا وصلَ إلى الميقات تجرَّد من لباسه المعتاد وتواضع لربِّه ولبس هذا اللِّباس المتواضع إزارًا ورداءً وحَسَرَ عن رأسه، ومشى متذلِّلًا خاضعًا إلى بيت الله العَتيق شعارُه: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ والنِّعْمَةَ لَكَ والمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ» يردِّدُها حتَّى يصل بيت الله، ثمَّ يردِّدها في تنقُّلاته بين المشاعر، فكم في هذا من نُقلةٍ في

---

(١) سبق تخريجه.

حياة الإنسان؟ وكَم له مِن الأثر العَظيم على سُلوكِه وأخلاقِه ولاسيَّما إذا استَشْعر هذه المعاني، وحضَرت في قلبَه هذه الدِّلالات؛ ولاشكَّ أنَّ هذا بابٌ عظيمٌ جدًّا من أبواب قوَّة الإيمان وزيادته.

فحريٌّ بمَن أَكرمَه الله عَزَّوَجَلَّ بالحجِّ أن يكون في حجِّه مُخْبِتًا لربِّه، مُتَوَاضِعًا لجَنَابه، مُنكَسِرًا بين يديه، يرجو رحمَته ومغفرتَه ويخافُ عذابَه ومقتَه، تائبًا مِن كلِّ ذنبٍ اكتسَبَتْه يداه، ومن كلِّ خطيئةٍ مشت إليها قدَماه، مُكثِرًا من الذِّكر والدُّعاء والاستغفار والتَّضرُّع؛ لينقلب من حجِّه خيرَ منقَلَبٍ، وليعودَ إلى أهله وبلده على خير حالٍ، فيبدأ صفحةً جديدةً في حياته عامرةً بالطَّاعة والصَّلاح والاستقامة، بقلبٍ مطمئنٍّ ونفسٍ مُنيبةٍ وفؤادٍ مخبِتٍ، سائلًا ربَّه الثَّبات على الإيمان والسَّلامةَ من الفتن، وبالله وحده التَّوفيق.

❋ ❋ ❋

◙ المقصد السَّادس:

تعميق الاستجابة لله ـ تبارك وتعالى ـ

من مقاصد الحجِّ العظيمة: تعميق الاستجابة لله ـ تبارك وتعالى ـ والامتثال لأمره والطَّواعية له ﷻ والانقياد لشرعه؛ وهذا مقصدٌ عظيمٌ جليلٌ من مقاصد الحجِّ ينبغي أن نتنبَّه له، ويبرُز هذا المقصد في مجالاتٍ عديدةٍ في الحجِّ من أهمِّها وأعظمها التَّلبية الَّتي تتكرَّر من الحاجِّ عشرات المرَّات ولربَّما مئات المرَّات بحسب نشاط الحاجِّ في التَّلبية، وهي كلماتُ استجابةٍ وامتثالٍ لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وفي التَّلبية تتكرَّر كلمة «لبَّيك» أربع مرَّاتٍ، وهي كلمة استجابةٍ، أي: أنا مستجيبٌ لك يا الله ممتثلٌ لأمرك منقادٌ لشرعك، دعوتني

لحجِّ بيتِك فقُلت: «لبَّيكَ اللَّهُمَّ لبَّيكَ».

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [سُورَةُ الحَجِّ].

فجاءت الإجابة من أهل الإيمان لنداء الرَّحمن بأن قالوا: «لبَّيك اللَّهُمَّ لبَّيك» أي: نحن مستجيبون لك يا الله ممتثلون لأمرك، منقَادون لما دعوتَنا إليه، وتكرار كلمة «لبَّيك» في التَّلبية فيه تأكيدٌ للاستجابة؛ فقولك: «لبَّيك اللَّهم لبَّيك» أي: استجابةٌ من بعد استجابةٍ، وانقيادٌ من بعد انقيادٍ، وامتثالٌ من بعد امتثالٍ.

ويُشرَع للملبِّي أن يرفع صوتَه بالتَّلبية كما جاء في الحديث عن نبيِّنا ﷺ أنَّه قال: «**جَاءَنِي جِبْرِيلُ، فقال: يَا مُحَمَّدُ! مُرْ أَصْحَابَكَ، فَلْيَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بالتَّلْبِيَةِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ شَعَائِرِ الحَجِّ**»(١)، وجاء عنه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ

(١) رواه أحمد (٢١٦٧٨) وغيره.

أنَّه سئل: ما الحجُّ؟ فقال: «**العَجُّ والثَّجُّ**»[1]، والعجُّ: هو رفع الصَّوت بالتَّلبية.

ورفع الصَّوت بالتَّلبية له معنًى عظيمٌ وأثرٌ جليلٌ على العبد في تحقيقه الاستجابة والامتثال لأمر الله ﷻ، وقد جاء في حديثٍ رواه التِّرمذي عن سهلٍ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُلَبِّي إِلَّا لَبَّى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ الأَرْضُ مِنْ هَاهُنَا وهَاهُنَا**»[2]، فعندما تلبِّي وترفَعُ صوتَك بالتَّلبية فإنَّ الشَّجَر والحجَر والجبالَ عن يمينكَ وشمالكَ يلبِّي بتلبيتِك، ولئن كنَّا لا نسمعُ صوتَ تلبية الشَّجر والحجر والجبالِ إلَّا أنَّنا مِن ذلك على يقينٍ؛ لأنَّ الَّذي أخبرنا بذلك الصَّادق المصدوق الَّذي لا ينطق عن الهوى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ومن شواهد ذلك في القُرآن قول الله عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ

---

(١) رواه ابن ماجه في «سننه» (٢٨٩٦).

(٢) رواه التِّرمذي في «جامعه» (٨٢٨).

وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [سُورَةُ الإِسْرَاءِ]، ويقول ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [سَبَإٍ : ١٠].

فهذه التَّلبية المتكرِّرة تكرارًا كثيرًا على لسان الحاجِّ ليس تكرارُها أمرًا لا معنى له وتردادًا لا فائدةَ مِن ورائه، حاشا وكلَّا، بل إنَّ هذا التَّكرار من شأنه أن يعمِّقَ في قلب الحاجِّ الاستجابةَ لله عَزَّوَجَلَّ والامتثالَ لأمره، ليس فقط في مكَّة وفي التَّنقُّلات بين المشاعر بل في حياة الحاجِّ كلِّها، فيا مَن دعاك اللهُ للحجِّ فلبَّيتَ النِّداءَ وجئتَ ميمِّمًا بيتَه العتيق ترجو رحمتَه وتخاف عقابَهُ كيف حظُّك مع بقيَّة الأوامر؟ كيف شأنُك مع الصَّلاة الَّتي هي عماد الدِّين وأعظمُ أركانِه بعد الشَّهادتَين؟ كيف شأنُك مع الصِّيام؟ كيف شأنُك مع الزَّكاة؟ كيف شأنُك في البُعد عن النَّواهي وترك المحرَّمات؟ إن كنتَ ممتثلًا فاحمد اللهَ واسألهُ المزيدَ، وإن كنتَ مفرِّطًا مضيِّعًا فحاسب نفسَك قبل أن تُحاسَب في يوم الوعيد.

نعم دُعِيتَ إلى الصَّلاة وهي أهمُّ من الحجِّ وأعظم، ودُعيت إلى الصِّيام وهو أهمُّ من الحجِّ وأعظم[1]، ودُعيت

(١) هذا يدلُّ عليه دلائلُ كثيرةٌ منها: أنَّ الأحاديث الَّتي يذكر فيها ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ مباني الإسلام الخمسة يقدِّم فيها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الصَّلاة والزَّكاة والصِّيام على الحجِّ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ على خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله، وإِقَامِ الصَّلَاةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وصَوْمِ رَمَضَانَ، وحَجِّ البَيْتِ**» رواه البخاري ومسلم، ثمَّ ـ أيضًا ـ إذا تأمَّلت من جهةٍ أخرى نزولَ هذه الشَّرائع على نبيِّنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وترتيبها في النُّزول أوَّل ما بُعث بعث ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ بالتَّوحيد بلا إله إلَّا الله، لمَّا كان عمره أربعين سنةً مضى في الدَّعوة إلى كلمة التَّوحيد عشر سنواتٍ، ثمَّ لمَّا بلغ عمرُه خمسين سنةً فُرضت عليه الصَّلاة، ثمَّ مكث خمسَ سنواتٍ بعد ذلك في السَّنة الثَّانية من الهجرة فُرض الصِّيام، ولم يفرض الحجُّ إلَّا في السَّنة التَّاسعة من الهجرة، وهذا التَّرتيب يدلُّ على أنَّ التَّوحيد أعظم، ثمَّ الصَّلاة، ثمَّ الصِّيام، ثمَّ الحجُّ، أمَّا أن يكون الإنسان مضيِّعًا للتَّوحيد ـ مثلًا ـ ويحجُّ؛ ماذا ينفعه حجُّه وقد ضيَّع الأصلَ والأساس؟ أو يكون مضيِّعًا للصَّلاة ويحجُّ؛ ماذا ينفعه حجُّه إذا كان مضيِّعًا للصَّلاة؟ وقد قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**العَـهْدُ الَّـذِي بَيْنَنَا وبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ، فَمَنْ** =

لعموم الفرائض، ودُعيت لتجنُّب المحرَّمات؛ فما واقعُك أيُّها الملبِّي؟! ويا مَن كرَّرتَ كلمات التَّلبية عند بيت الله وفي تنقُّلاتك بين المشاعر مع أوامِر الله وفرائض الإسلام؟ أيَلِيقُ بمسلمٍ أن يرفع صوتَه بالتَّلبية في الحجِّ ثمَّ إذا نودي إلى الصَّلاة لا يلبِّي النِّداء!! وإذا دُعِيَ إلى الصِّيام لا يلبِّي النِّداء!! وإذا دُعِيَ إلى البُعد عن المحرَّمات والآثام لا يلبِّي النِّداء!!

وهذا ينبغي أن نستَشعر أنَّ التَّلبيةَ وأعمال الحجِّ تعمِّق في قلوبنا الاستجابةَ لله والامتثالَ لأمره ﷻ، وكم مِن أناسٍ أكرمَهم الله ﷻ بأن استَفادوا مِن حجِّهم فعادوا إلى بلادِهم على خير حالٍ وعلى أحسنِ مآلٍ حفظًا للأوامر وبُعدًا عن

= **تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ**» رواه التِّرمذي والنَّسائي وابن ماجه وغيرهم، وذُكرت عنده الصَّلاة يومًا فقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وبُرْهَانًا ونَجَاةً يَوْمَ القِيَامَةِ، ومَنْ لَمْ يُحَافِظْ عليها لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ ولَا بُرْهَانٌ ولَا نَجَاةٌ، وكَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وفِرْعَوْنَ وهَامَانَ وأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ**» رواه الإمام أحمد والدَّارمي وغيرهما، والأدلَّة في شأن الصَّلاة وتعظيم قدرها وبيان رفيع مكانتها كثيرةٌ جدًّا.

النَّواهي وتحقيقًا لتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا جاء في أثناء آيات الحجِّ قولُ الله سُبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].



شهود منافع الحجِّ العظيمة

من مقاصد الحجِّ: شهود منافع الحجِّ العظيمة وعِبَره المؤثِّرة ودروسِه المتنوِّعة قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [سُورَةُ الحَجِّ].

ومنافع الحجِّ وفوائده لا يُمكن حصرُها، وعِبَرُه ودروسُه لا يُمكن عدُّها واستقصاؤها؛ فإنَّ قولَه تعالى في الآية: ﴿مَنَٰفِعَ﴾ هو جمع منفعةٍ، ونكَّرَ المنافعَ إشارةً إلى تعدُّدِها وتنوُّعِها وكثرتِها، وشهودُ هذه المنافع أمرٌ مقصودٌ في الحجِّ؛ إذ اللاَّم في قوله: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ لام التَّعليل،

وهي متعلِّقةٌ بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: إنْ تؤذِّن فيهم بالحجِّ يأتوك مشاةً ورُكبانًا لأجل أن يشهَدوا منافعَ الحجِّ، أي: يحضُروها، والمراد بحضورهم المنافع: حصولها لهم وانتفاعُهم بها.

ولهذا؛ فإنَّ مِن الحريِّ بكلِّ مَن وفَّقه اللهُ عَزَّوَجَلَّ لهذه الطَّاعة ويَسَّر له أداءَ هذه العبادةِ أن يكونَ حريصًا غايةَ الحرص على تحصيل منافع الحجِّ والإفادةِ من عِبَره وعظاتِه، إضافةً إلى ما يُحصِّله في حجِّه من أجورٍ عظيمةٍ وثوابٍ جزيلٍ ومغفرةٍ للذُّنوب وتكفيرٍ للسَّيِّئات، وجديرٌ بمَن نال هذَا الرِّبحَ وفاز بهذَا المَغنَم أن يعودَ إلى بلدِه بحالٍ زاكيةٍ ونفسٍ طيِّبةٍ وحياةٍ جديدةٍ مليئةٍ بالإيمان والتَّقوى، عامرةٍ بالخيرِ والصَّلاح والاستقامة والمحافظَة على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.



التَّذكير بحال الأنبياء

من مقاصد الحجِّ العظيمة: التَّذكير بحال الأنبياء وسِيَر رُسُل الله عَزَّوَجَلَّ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين ـ، والحجُّ مليءٌ بالمواقف والمشاعر والشَّعائر العظيمة الَّتي تذكِّر المؤمنين بأنبياء الله، فهذه الأرض المباركة الَّتي أكرمَنا الله عَزَّوَجَلَّ بالتَّنقُّل فيها مِن مشعرٍ إلى مشعرٍ ومِن منسكٍ إلى منسكٍ هذه الشَّعائر والمناسك خَطَاها قبلَنا رسُل الله وأنبياؤه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ، قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: **«صَلَّى فِي مَسْجِدِ الخَيْفِ سَبْعُونَ نَبِيًّا»**[1].

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٢٨)، والطَّبراني في «المعجم الكبير» (١٢٢٨٣).

فقَبلك في هذه الطَّاعة جاءَ إلى هذه الأراضي المباركَة صفوةُ عبادِ الله؛ فتستَشعر هذَا وتُعمِّق في قلبكَ ارتباطَك بأنبياء الله وسيرَك على منهجِهم وقفوَك أثَرهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهذا التَّذكُّر العظيم يأتيك في كلِّ عملٍ مِن أعمال الحجِّ:

▣ فإذا جئتَ إلى بيتِ الله فإنَّك تذكُر أنَّ الَّذي قام على بناءِ البيت هما خليل الرَّحمن إبراهيم، وابنه إسماعيل ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧].

▣ وإذا انتهيتَ مِن الطَّواف اتَّخذتَ مِن مقام إبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ مصلًّى، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

▣ وإذا شربتَ مِن زَمْزَم وسعَيتَ بين الصَّفا والمروة ذكَّرك ذلك بقصَّة هاجر تلك المرأة المؤمنة الصَّادقة المتوكِّلة

على الله ﷻ لَمَّا جاء بها إبراهيم عليه السلام إلى هذه الأرض وأرادَ أن يرحَل وأن يتركَها بوادٍ غير ذي زرعٍ هي ووليدها وحدَهم، قالت: «**مَنْ أَمَرَكَ أَنْ تَضَعَنِي بِأَرْضٍ لَيْسَ فِيهَا ضَرْعٌ، وَلَا زَرْعٌ، وَلَا أَنِيسٌ، وَلَا زَادٌ، وَلَا مَاءٌ؟**» قال: «**رَبِّي أَمَرَنِي**»، قالت: «**فَإِنَّهُ لَنْ يُضَيِّعَنَا**»[1]، وبقيَت وحدَها في ذلكَ المكان تلك المؤمنة المتوكِّلة على الله ﷻ، ثمَّ لَمَّا اشتدَّ بها العَطش وخافت على وليدها من الهلاك صعدَت على الصَّفا تبحث عن الماء وتنطلقُ إلى المروة تبحثُ عن الماء وترجع إلى الصَّفا وإذا نزلت بطنَ الوادي أسرَعَت وشدَّت، ثمَّ أذِن الله ﷻ بأن يَنْبُعَ ماءُ زَمْزَمْ وبقي مِن ذلك الزَّمان ماءً مباركًا، وقد ورد في فضل هذا الماء حديث أبي ذرٍّ الطَّويل في «صحيح مسلم»[2] وفيه: «**إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ**»، ورواه أبو داود الطَّيالسي في «مسنده»[3] بإسنادِ مسلم، وزاد فيه: «**وَشِفَاءُ**

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ٦٩٢) عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٢) برقم (٢٤٧٣).

(٣) برقم (٤٥٩).

سَقَمٍ»، وورد ـ أيضًا ـ في فضله حديث جابرٍ ﷺ مرفوعًا: «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**»[(١)]، وصبَّ منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ على رأسه، وحمل منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ معه، فهو ماءٌ مباركٌ ليس على وجه الأرض ماءٌ أطيبَ ولا أنفعَ ولا أبركَ منه، ثمَّ أصبح السَّعي بين الصَّفا والمروة شعيرةً من شعائر الله وطاعةً من الطَّاعات العظام على إثرِ قيام هذه المرأة الصَّالحة المؤمنة، حتَّى أنبياء الله ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ كانوا يسعون في ذلك المكان على إثرِ تكرُّر وسَيْر هاجر فيه إلى أن يسَّر الله ﷻ لها الماء.

◘ وإذا ذَهبْتَ إلى عرفاتٍ، ففي الحديث أنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ قال للصَّحابة: «**كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** عليه السلام»[(٢)]، والأنبياء

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٠٦٢) وغيره، وقد حسَّنه بعضُ أهل العلم وصحَّحه بعضهم، انظر ذلك في «إرواء الغليل» للألباني رحمه الله (١١٢٣).

(٢) رواه التِّرمذي في «جامعه» (٨٨٣)، والنَّسائي في «السُّنن» (٣٠١٤) واللَّفظ له.

لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنَّما ورَّثوا دينَ الله، وقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا والنَّبِيُّون مِن قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»(١).

◘ وإذا رميتَ الجِمار يذكِّرك ذلك بأصل الرَّمي؛ فعن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما رفعه: «**لَمَّا أَتَى إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الله المَنَاسِكَ عَرَضَ لَهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ جَمْرَةِ العَقَبَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدَ الجَمْرَةِ الثَّانِيَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُ عِنْدِ الجَمْرَةِ الثَّالِثَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى سَاخَ فِي الأَرْضِ**»(٢)، فبقي ذلك شعيرةً عظيمةً يقوم بها المؤمنون في

(١) رواه التِّرمذي في «جامعه» (٣٥٨٥)، وحسَّنه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٥٠٣).

(٢) رواه الحاكم (١٧١٥) وصحَّحه، ووافقه الذَّهبي، وانظر «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» للألباني (١١٥٦).

حجِّهم لبيت الله عَزَّوَجَلَّ إقامةً لذكر الله سبحانه.

◘ وفي ذبح الهدايا ـ أيضًا ـ ما يُذكِّر بتلك القصَّة العجيبة العظيمة عندما رأى إبراهيمُ الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ في المنام أنَّه يذبح ابنَه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ فاستَشاره في ذلك: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [سُورَةُ الصَّافَّاتِ]، جاء بابنه ومعه السِّكِّين ووضع السِّكِّين على رقبته استسلامًا منه ومِن ابنه لأمر الله، ففَدَاه الله عَزَّوَجَلَّ بذِبحٍ عظيمٍ.

فكلُّ هذه الأعمال تذكِّر بالأنبياء؛ فيخرج الحاجُّ من حجِّه بعبقٍ طيِّبٍ وذكرى جميلةٍ تربطه بصفوة الخلق أنبياءِ الله ورسله الَّذين هُم خيار عبادِ الله وأفضلِهم على الإطلاق مستشعرًا سلوكَه سبيلَهم ولزومَه نهجَهم عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين وعلى مَن تبعَهم بإحسان.

ولهذا عليكَ أن تحمدَ الله عَزَّوَجَلَّ أن جعَلك مِن ورثة النَّبيِّين سائرًا على نهجهم سالكًا سبيلَهم مقتفيًا أثرَهم، فهذا

من فضل الله ﷻ ومنِّه عليك، وهذا يجعل العبد يزداد عنايةً بهذا السَّبيل وسلوك هذا المنهج ولاسيَّما مقام التَّوحيد والاعتقاد والإخلاص لله ﷻ، وقد قال نبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**»[1] أي عقيدتهم واحدةٌ وشرائعهم مختلفةٌ، فيعتني العبد بهذه العقيدة القَويمة الصَّحيحة، وهذا التَّوحيد الخالص الَّذي هو نهج النَّبيِّين وأساس دعوة المرسلين.



---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

تعميق الاتِّباع لرسُول الله ﷺ

من مقاصد الحجِّ العظيمة: تعميق الاتِّباع لرسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ولهذا تجد الحاجَّ يحرص حرصًا شديدًا في حجِّه أن يكون كلُّ عملٍ من أعماله موافقًا للسُّنَّة، ويسأل أهلَ العلم كثيرًا إن فعلتُ كذا هل عليَّ حرجٌ؟ هل هذا العمل صوابٌ؟ هل هو موافقٌ للسُّنَّة؟ تجد حرصًا شديدًا من الحاجِّ أن تقع أعمالُه في حجِّه وفق السُّنَّة، وكلُّنا يعلم قولَ نبيِّنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في حديث جابرٍ في «صحيح مسلم»: «**لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»[1]، قال

(١) «صحيح مسلم» (١٢٩٧).

ذلك ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في حجِّه، فتجد الحاجَّ يحرص في باب المأمورات على فعلها والإتيان بها وافيةً، ويحرص في باب المحظورات على تركها والبعد عنها، وتجده يسأل بدقَّةٍ ويتحرَّى بصدقٍ أن تكون أعمالُه موافقةً لهدي النَّبيِّ الكريم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

وانظر إلى تلك الكلمة العظيمة الَّتي قالها عُمَر ابن الخطَّاب رضي الله عنه عندما قبَّل الحجر قال: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ، ولَوْلا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ»[1]، وعن يعلى بن أُمَيَّةَ رضي الله عنه قال: «طُفْتُ مع عُمَر ابن الخَطَّابِ رضي الله عنه فاستلم الرُّكنَ، قال يعلى: فكنتُ ممَّا يلي البيتَ، فلمَّا بلغْتُ الرُّكن الغربِيَّ الَّذي يلي الأسودَ، جَرَرْتُ بيدِهِ لِيَسْتَلِمَ، فقال: ما شأنكَ؟ فقلت: ألا تَسْتَلِمُ؟ قال: ألم تطُفْ مع رسول الله ﷺ؟ فقلت: بلى، فقال: أَفَرَأَيْتَهُ يَسْتَلِمُ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ الغربِيَّيْنِ؟ قال: فقلت: لا، قال: أفليْسَ لك

(١) رواه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم(١٢٧٠).

فيه أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ؟ قال: قلتُ: بلى، قال: فانْفُذْ عَنْكَ»[1] أي: لا نفعل شيئًا من الأعمال إلَّا ما كان موافقًا لسنَّة النَّبيِّ ﷺ.

ولهذا؛ فمن المقاصد العَظيمة والفَوائد الجليلة الَّتي يفيدها المسلمُ في حجِّه أن يحرص في حياته كلِّها أن تكون عباداته كلُّها وفقَ شرع الله عَزَّوَجَلَّ ويقول لنفسِه: كما أنِّي كنتُ في حجِّي لبيت الله أتحرَّى السُّنَّة وأسألُ عنها وأتحرَّى موافقةَ هدي النَّبيِّ ﷺ فلأَكُن هكذا في طاعاتي كلِّها وعباداتي جميعها؛ فيتحرَّى السُّنَّةَ في صلاته، وفي صيامه، وفي كلِّ عبادةٍ يتقرَّب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويحذر أشدَّ الحذر من الأهواء والبدع الَّتي ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها من سلطانٍ.

قد ينشأ بعضُ النَّاس في مجتمعاتٍ يكثر فيها البدع ويتعوَّد عليها، لكن عليه أن يستفيد من حجِّه، فمثلما أنَّه في الحجِّ يحذر من البدَع ويحرص على السُّنن، فليحرص على

---

(١) «مسند الإمام أحمد» (٣١٣).

ذلك في عباداته كلِّها فيثمر له حجُّه لزومَ هدي النَّبيِّ الكريم وموافقةَ نهجِه القَويم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ والحذر منَ البدع بأنواعها.



مخالفة المشركين في أعمالهم وضلالاتِهم

من مقاصد الحجِّ: مخالفةُ المشركين في أعمالهم وضلالاتهم وجاهليَّاتهم وأباطيلهم الَّتي لا حدَّ لها ولا عدَّ.

ولهذا نرى أنَّ نبيَّنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خالف المشركين في أعمال الحجِّ؛ فكانوا يحجُّون ويُلبُّون ويقِفون في عرفاتٍ ويقفون في المزدلفة لكنَّهم كانوا على ضلالةٍ عمياء وجهالةٍ جهلاء، تلبيتهم قائمةٌ على الشِّرك والتَّنديد، كان الواحد منهم يقول في تلبيته: «لبَّيك اللَّهمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريكَ لكَ إلَّا شريكًا هو لكَ تملكُه وما مَلَك»؛ فيمزِجُون بالتَّلبية الشِّركَ بالله عَزَّوَجَلَّ واتِّخاذَ الأنداد،

وهذا هو معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ في بيان حالهم: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [سُورَةُ يُوسُفَ]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

فأهلَّ النَّبيُّ ﷺ بالتَّوحيد، وكان المشركون في حجِّهم يفيضون من عرفاتٍ قبل غروب الشَّمس، فخالفَهم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وجعل دَفْعَه من عرفاتٍ بعد الغروب، وكانوا يدفعون من مزدلفَة بعد طلوع الشَّمس فخالفَهم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ودفع منها عندما أسفَرت وقبل أن تطلع الشَّمسُ، مخالفةً منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ للمشركين، وكانوا لا يَرَوْنَ العُمرةَ في أشهر الحجِّ، بل يعتبرون أداءَها في أشهُره مِن أفجَر الفُجور؛ فخالفهم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ واعتَمر جميعَ عُمَرِه في أشهر الحجِّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

وهكذا أعمال الحجِّ والطَّاعات الَّتي يقوم بها المسلم ينبغي أن تكون سالمةً من ضلالات أهل الجاهليَّة وسفَه أهل

الباطل، ولَمَّا خطب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ النَّاسَ في الحجِّ قال في خطبته: «**أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، ودِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابنِ رَبِيعَةَ بنِ الحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا في بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، ورِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؛ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ**»(١)، وهذا فيه بيانٌ للحال البئيسة، والفساد العريض الَّذي كان عليه النَّاسُ قبل الإسلام في عباداتهم وتعاملاتهم؛ شِركٌ بالله، ودماءٌ تُراق، وأموالٌ تُنتهب، وأعراضٌ تُنتهك، حيث بلغ فيهم الجهل مبلغَه والضَّلال غايتَه، فنالوا بذلكَ مقتَ الله عَزَّوَجَلَّ وسخطَه.

فينبغي على المسلم أن يكونَ مستفيدًا من حجِّه تحقيقَ المخالفة لأعداء دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يكون مُعتزًّا بدينه، وأن يكونَ حذِرًا أشدَّ الحذَر منَ التَّشبُّه بأعداء الله، وأن يعرف

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

لهذه النِّعمة قدرَها، وأن يحفَظ لها مكانتَها، وأن يحافظ عليها، صلاحًا في نفسِه، وإصلاحًا في مجتَمعه، سائرًا على سنن الإسلام المستَقيم وصراطه القَويم، حَذِرًا غايةَ الحذر من أعمال الجاهليَّة وغيِّها وسفهها وضلالها، لينال رضا الله ورحمتَه، وليسْلَم من سخطه ـ سبحانه ـ ومقته، وقد ثبت في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى الله ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ، ومُبْتَغٍ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، ومُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**»(١).

وإنَّ منَ المصيبة العُظمى والبليَّة الكبرى أن ترى في أناسٍ كثيرٍ انهزامًا في الدِّين وارتخاءً في التَّديُّن، وذلك ظاهرٌ فيهم من جهة محاكاة الكفَّار والتَّشبُّه بهم، وقَد قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بذِرَاعٍ، وَبَاعًا فباعًا، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ**

(١) رواه البخاري (٦٨٨٢) عن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما.

لَدَخَلْتُمُوهُ»[1]؛ قال ذلك ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ محذِّرًا أمَّته أشدَّ التَّحذير من اتِّباع الجاهليَّة وسلوك سنن الكفَّار والمشركين.

وجُحر الضَّبِّ متميِّزٌ عن بقيَّة جحور الزَّواحف والدَّوابِّ أنَّه مُتَلَوٍّ في الأرض بحيث أنَّ مَن أراد أن يحفر ليُمسكَ به لا يهتَدي إليه مِن شدَّة تلَوِّيه، وهذا يعني أنَّ الكفَّار لو عمِلوا أعمالًا متلوِيةً معقَّدةً لوُجِد في أبناء المسلمين مَن يعمَل مثلَهُم، وهذا إخبارٌ من النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ عن أمرٍ كونيٍّ قدريٍّ قضاه الله وقدَّره أنَّه سيقَع، وهُو في الوقت نفسه يتضمَّن التَّحذير، بل هو بليغٌ جدًّا في التَّحذير من التَّشبُّه، فهو يخبر أنَّه واقعٌ لا محالة؛ لأنَّ الله قضى ذلك وقدَّره ويضمِّن ذلك التَّحذير من ذلك، فليحذَر المسلمُ أشدَّ الحذر وفي الحديث: «**وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[2].

---

(١) رواه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩)، والإمام أحمد في «المسند» (٨٣٤٠) واللَّفظ له.

(٢) رواه أحمد (٥١١٥).

إنَّ الواجب على كلِّ مسلمٍ سمع هذا الحديث ووعاه قلبُه أن يكون في غاية الحذَر مِن تقليد الكفَّار والتَّشبُّه بأعداء دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، ويتأكَّد هذا الأمر في مثل هذا الزَّمان الَّذي انفتح فيه النَّاس على عادات الكفَّار وتقاليدهم وطقوسهم وأعمالهم انفتاحًا واسعًا؛ فأصبحت البيوتُ المسلمة يصلُ إليها من ثقافات الكفَّار ـ بل مِن سخافَاتهم ـ في قعر بيوتهم من خلال القنوات الفضائيَّة، ومن خلال الشَّبكات العنكبوتيَّة، ومن خلال المجلَّات الهابطة، حيث تتلوَّث الأفكار وتفسد العقُول وتُخلخَل الأديان وتُخرَّب الأخلاق ويقَع النَّاس في أنواعٍ كثيرةٍ من التَّشبُّه بأعداء دين الله، ولاسيَّما في محيط كثيرٍ مِن شباب المسلمين وشابَّاتهم بسبب الجهل والبعد عن دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، روى الطَّبري في «تهذيب الآثار» عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: **«لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ تَكُونُ فِيهِ القُلُوبُ قُلُوبَ الأَعَاجِمِ»**[1].

---

(١) «تهذيب الآثار» (٢٠١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وانظر «السِّلسلة الصَّحيحة» للألباني (٣٣٥٧).

والمراد بالأعاجم أعداءُ دين الله منَ اليهود والنَّصارى وغيرهم من أرباب الكُفر والضَّلال؛ فيأتي على النَّاس زمانٌ تكون فيه القُلوب قلوبَ الأعاجم بسبَب عدَم الفقه في دين الله، وكثرةِ الجهل، واتِّجاهِ النُّفوس ـ حينئذٍ ـ إلى التَّشبُّه بالكفَّار وتقليدهم في أعيادهم وعاداتهم وألبستهم، وغيرِ ذلك من شؤونهم لحبِّ الدُّنيا والتَّكالب عليها، وهي حالةٌ بئيسةٌ يتعوَّذ المسلمُ النَّاصحُ لنفسه منها أو مِن التَّلوُّث بها؛ أعاذَنا الله أجمعين وحمانا مِن سلوك سبيل المغضوب عليهم والضَّالِّين.



تذكُّر الآخرة

من مقاصد الحجِّ العظيمة: تذكُّر الآخرة وتذكُّر الوقوف بينَ يدَي الله ﷻ، وتأمَّلْ أوَّلَ ما يبدأُ المسلم مِن أعمال حجِّه عندما يتَجرَّد مِن زينته ولباسِه والهيئة الَّتي اعتاد عليها، وكلُّ حاجٍّ قد اعتاد في بلدِه على نوعٍ من اللِّباس، فتجد الجميعَ إذا وصلُوا إلى الميقاتِ تجرَّدوا منَ المخيط واغتَسلوا وتطيَّبوا ثمَّ يلبس الجميعُ إزارًا ورداءً أبيضَين نظيفَين؛ إزارًا يلُفُّ به جزءَ بدنِه الأسفَل، ورداءً يضعه على عاتقَيْهِ، بهذه الهيئة المتواضعة وهذه الصِّفة الَّتي يتساوى فيها الجميع الغنيُّ والفقيرُ والرَّئيس والمرؤوس والأمير والمأمور

والصَّغير والكبير كلُّهم يستَوُون في ذلك.

وهذه الهيئة الَّتي يستَوُون فيها وهُم متَّجهِين إلى بيت الله ـ أيضًا ـ يستوون فيها عند مغادرة هذه الحياة، أرأيتُم كلَّ مَن يموت ما الَّذي يكونُ معه مِن دُنياه؟ وما الَّذي يدخل معَه منها في قَبره؟ لا يدخل معَه في قَبره إلَّا قِطَعٌ من القُماش يُلَفُّ بها بدَنُه ويصلَّى عليه بعد أن يُغسَّل ثمَّ يُدرج في قبره، ولهذا قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا**» قال: قُلنا: وما بُهْمًا؟ قال: «**لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ**»[1]، لا زراعةَ ولا تجارةَ ولا أموالَ ولا رئاسةَ ولا غيرَ ذلك، فلباس الإحرام يذكِّر بلباس الكَفَن.

والوقوف على صعيد عرفاتٍ يذكِّر بالوقوفِ بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ يومَ القيامة؛ تأمَّل اجتماعَ الخلائق مِن أنحاءِ الدُّنيا على صعيدٍ واحدٍ في لحظةٍ واحدةٍ، مَن الَّذي جمعَهُم هذا الجمع؟ إنَّه ربُّ العالمين الَّذي يجمَعُ الأوَّلِين والآخِرين على

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٦٠٤٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٣٨).

صعيدِ أرض المحشَر يوم القيامة، يُجمع الجميع من أوَّلهم إلى آخرهم مَن مات حرقًا، ومَن أكلته السِّباع، وخرج منها بعرًا، ومَن دُفِنَ وضَلَّ في الأرض ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [سُورَةُ السَّجۡدَةِ]؛ كلُّ هؤلاء يجمَعُهم ربُّ العالمين؛ فوقوفُك بعرفات يذكِّرك بالموقف الأعظم بينَ يدَي الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة.

وثبتَ في «المسند» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال للنَّاس قبل غروب الشَّمس وهُو واقفٌ بعرفة: «**أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ دُنْيَاكُمْ فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ**»[1].

والحُجَّاج يقفون على صعيد عرفة وكلٌّ منهم يرجو أن تُعتق رقبته من النَّار في ذلك اليوم، وقد قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنْ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ**»[2]، فأكثر يومٍ لله فيه عتقاءُ من النَّار هو

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦١٧٣).

(٢) رواه مسلم (١٣٤٨).

يوم عرفة؛ ولهذا ينبغي أن يكون طمعُ المسلم في هذا اليوم قويًّا وشديدًا أن تُعتَق رقبتُه من النَّار، وأن يَخرُجَ من أرض عرفاتٍ وقَد أُعتِقَتْ رقبتُه من النَّار.

اللَّهمَّ اعتِق رقابَنا منَ النَّار وآبائِنا وذريَّاتِنا وأزواجِنا يا ربَّ العالمين.

فالحجُّ فيه مشاهدُ عظيمةٌ، وفيه مواقفُ جليلةٌ تذكِّر الإنسانَ بالبعث والجزاء والحسَاب والوقُوف بينَ يدَي الله ﷻ يوم القيامة؛ ولهذا تأمَّل ـ أيُّها الحاجُّ الموفَّق! ـ آياتِ الحجِّ في سورة البقَرة بماذا خُتمَت؟ قال تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٠٣﴾، هذا أمرٌ تأخذه معك إذا أتممت حجَّك، وترجعُ إلى بلادِك وهو معَك ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ لأنَّ الحجَّ يذكِّر بالحشر والجزاء والحساب؛ فاتَّقِ الله يا مَن حجَجتَ بيتَ الله، وتذكَّر أنَّك تُحشر إلى الله، وأنَّ الله ﷻ يحاسبُك ويجازيكَ على ما قدَّمت

في هذه الحياة، واعلم أنَّ هذه الحياةَ الدُّنيا مُدْبِرةٌ وأنَّ الآخرة مُقبِلةٌ وأنَّ لكلٍّ منهُما بنونًا، قال عليٌّ رضي الله عنه: «فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ ولَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ ولَا حِسَابَ، وغَدًا حِسَابٌ ولَا عَمَلٌ».

وإذا كانَ العبدُ على هذَا العلم والإيمانِ واليقين بأنَّه إلى الله يُحشر؛ فإنَّ علمَه هذَا ويقينَه يكونُ معونةً له في صلاح عمَلِه والتَّهيُّؤ لذلكَ اليوم كما قالَ الله عزَّ وجلَّ في أثناء آياتِ الحجِّ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، فالَّذي يكون على يقينٍ من الحشر والجزاء والحساب يكونُ هذا اليقين معونةً له على إصلاح عمله: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ٢٦﴾ [سُورَةُ الطُّورِ]؛ أي: مُشفِقِين من البعث والحشر والجزاء والوقوف بين يدي الله، وهذا الإشفاق جعلَنا نعمَل بطاعة الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [سُورَةُ الطُّورِ]، والَّذي يؤتى كتابَه

باليمين يقولُ يومَ القيامة: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠﴾ [سُورَةُ الحَاقَّةِ]، أي كنتُ في الدُّنيا أعتَقد أنَّ هناك بعثًا وحسابًا وحشرًا على يقينٍ من ذلكَ فكنتُ أهيِّئُ لهذا اليوم عدَّتَه.



تحقيق الأخوَّة الدِّينيَّة

من مقاصد الحجِّ العظيمة: تحقيق الأخوَّة الدِّينيَّة والرَّابطة الإيمانيَّة، وهي تتجلَّى في الحجِّ وتبرُز فيه بأبهى صورها وأجمل حُللها؛ فهاهُم الحجيجُ يطوفون ببيت الله ويجتَمعون على صعيد عرفَة ويجتَمعون في مُزدَلفة لباسُهم واحدٌ، ومقصودُهم واحدٌ، ومعبودُهم واحدٌ، وأعمالهم واحدةٌ، وقِبلتُهم واحدةٌ، ومتبوعُهم رسول الله ﷺ واحدٌ، يشتَركون في الآمال والآلام؛ آمالهم واحدةٌ وآلامُهم واحدةٌ وهمومُهم مشتركةٌ، اجتَمعوا في أعظم تجمُّعٍ إسلاميٍّ يُظهِر الرَّابطةَ الإيمانيَّة والأخوَّةَ الدِّينيَّة، هذا أحمر وهذا أسود، وهذا

عربيٌّ وهذا أعجميٌّ، الكلُّ يجمعُهم دينُ الله ﷻ، ولا فرقَ بين الجميع إلَّا بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سُورَةُ الحُجُرَاتِ]، وقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في حجَّة الودَاع: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟**» قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ الله ﷺ»[1].

فالحجُّ رابطةٌ عظيمةٌ تجمع أهلَ الإيمان على التَّآلف والتَّحابِّ والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى، وعلى امتثال أوامر الله عَزَّ وَجَلَّ وعلى مواساةِ الفُقراء، وانظر ذلك فيما يقدَّم في الحجِّ من هدايا وما يكون فيه مِن فديةٍ عندما يترك الحاجُّ شيئًا من أعمال الحجِّ الواجبة أو يرتكبُ محظورًا من محظوراته، وكيف أنَّ هذا ينفع الفقراءَ نفعًا عظيمًا ويفيدهم فائدةً كبيرةً، فالحجُّ

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٤٨٩).

يظهَرُ فيه التَّآخي والتَّرابط ويبرز فيه التَّآلف والتَّحابُّ والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى.

وفي هذا اليوم المبارك يومِ عرفة يُكثِر الحجيجُ مِن قَول «لا إله إلَّا الله»، فهي خيرُ ما يُقال في هذَا اليوم، بل هي خيرُ الكلماتِ على الإطلاق وأحبُّها إلى الله، وقد ثبتَ في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وخَيْرُ ما قُلْتُ أنا والنَّبِيُّونَ مِنْ قَبلي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ وهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»(١).

وفي هذا إشارةٌ عظيمةٌ إلى أنَّ اجتماعَ المسلمين لا يكون إلَّا على التَّوحيد لله والمتابعة للرَّسول ﷺ؛ إذ بهما تذوب الأهواءُ وتتبدَّدُ العداوةُ والبغضَاء، وتلتقي القلوبُ وتجتمع الكلمة وتتَّحِدُ الصُّفوف، وكلَّما ضعُف استمساكُهم بهذه الكلمة ضعُف حظُّهم من الاجتماع والأُلفة بحسب ذلكَ.

ثمَّ إنَّ هذه الجموعَ الغفيرةَ على اختلاف ألوانهم وتباين

---

(١) سبق تخريجه.

ألسنَتِهم وتباعُد بلدانِهم قد اجتَمعوا على مقصَدٍ واحدٍ وغايةٍ واحدةٍ تتَّضح من خلال هذه الكلمة الَّتي يهتفون بها ويُردِّدونها، فالَّذي جمعَهُم هو توحيدُ الله والإيمانُ به، والَّذي ألَّف بينَهم هو الخضوعُ لله والتَّذلُّل بين يدَيْه رغَبًا ورهبًا، رجاءً وخوفًا، حُبًّا وطمعًا.

فكلمة التَّوحيد «لا إله إلَّا الله» هي الرَّابطةُ الحقيقيَّةُ الَّتي اجتمع عليها أهلُ دين الإسلام، فعليها يُوالون ويُعادون، وبها يُحبُّون ويُبغضُون، وبسببها أصبحَ المجتَمعُ المسلم كالجسد الواحد، وكالبُنيان المرصُوص يشدُّ بعضُه بعضًا.

فمن مقاصد الحجِّ العظيمة تقوية هذه الرَّابطة وتوثيق هذه الصِّلة؛ فالرَّبُّ المعبودُ واحدٌ، والقِبلةُ المتَّجَه إليها واحدةٌ، والرَّسول المتَّبع واحدٌ، ولباسُ الإحرام، ومشاعر الحجِّ وأعماله واحدةٌ، ومكان تجمُّع المسلمين وزمانُه واحدٌ، وشعار الجميع «لبَّيكَ اللَّهمَّ لبَّيك» خضوعًا واستكانةً وانقيادًا وامتثالًا، فأيُّ رابطةٍ أوثقُ من هذه!! وأيُّ صلةٍ أعظمُ من هذه الصِّلة!!

ألا فلْيَعِ المسلمونَ ذلك، وليحمدُوا ربَّهم على هذا الوِشاج المبارك والوفاقِ الكريم، والحبِّ والإخاء، ولْيَسْعَ كلُّ واحدٍ منهم في تحقيق كلِّ ما يقوِّي هذه الصِّلةَ وينمِّيها، وليبتَعدوا عن كلِّ أمرٍ يُضعِفها ويُوَهِّيها، وليطرح الجميعُ العصبيَّاتِ العرقيَّةَ، والشِّعاراتِ القوميَّةَ، والنَّعراتِ الجاهليَّةَ، والتَّحزُّباتِ الضَّيِّقةَ، وليجتَمعوا على التَّوحيد والإيمان.



التَّربِّي على الأخلاق الفاضلة

من مقاصد الحجِّ: التَّربِّي على الأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة والتَّحلِّي بجميل الخصال وكامِل الآداب.

والحجُّ مدرسةٌ مُثلى للآداب والأخلاق يتربَّى فيه المسلمُ على الآداب الفاضلة، وحُسن المعاملة، والبُعد عن الإيذاء، والبُعد عن الجدال المذموم والخصومة ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، «مَنْ حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[1]، وكان

(١) سبق تخريجه.

ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يقول للنَّاس في الحجِّ: «**أَيُّهَا النَّاسُ! السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ**»[1]، وكان ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يقول لهم عند الجمرات: «**لَا يَقْتُلْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**»[2]، وقال رسولُ الله ﷺ في حجَّة الوداعِ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**»[3]، وقال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ لعُمَر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «**يَا عُمَرُ! إِنَّكَ رَجُلٌ قَوِيٌّ، لَا تُزَاحِمْ عَلَى الْحَجَرِ، فَتُؤْذِيَ الضَّعِيفَ، إِنْ وَجَدْتَ خَلْوَةً فَاسْتَلِمْهُ، وإِلَّا فاسْتَقْبِلْهُ فَهَلِّلْ وكَبِّرْ**»[4]، فالرَّجل القويُّ لا يستغِلُّ قوَّتَه في إيذاء النَّاس ويقول: أنا أُريد أن أقبِّل الحجر، إذا كانَ تقبيله يترتَّب عليه إيذاءٌ للنَّاس؛ لأنَّ تقبيلَ الحجر سنَّةٌ وإيذاءَ النَّاس حرامٌ.

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

(٢) رواه أبو داود في «السُّنن» (١٩٦٦)، والإمام أحمد في «المسند» (١٦٠٨٧).

(٣) رواه أحمد (٢٣٩٥٨).

(٤) رواه أحمد (١٩٠).

فالحجُّ يربِّي المسلم على التَّخلُّق بالأخلاق الفاضلة؛ والتَّحلِّي بالصَّبر، والرِّفق، والأناة، وحسن المعاملة، وطيب المعاشرة، لاسيَّما إذا استَشعر أنَّ الحجَّاج وفدُ الله؛ فيترفَّق بهم ويُحسِن إليهم ويتلطَّفُ في معاملتِه لهم، وحجُّه يُربِّيه على ذلك، وكلَّما استَشعر الحاجُّ هذا المقصدَ العظيمَ في الحجِّ يرجع منه مُتَأدِّبًا بآداب الإسلام مُتحلِّيًا بأخلاق الشَّريعة العظام.

وليتَحرَّ الحاجُّ مواطنَ الاستجابة في الحجِّ ليسأَلَ اللهَ أن يهدِيَه لأحسَن الأخلاق لا يهدي لأحسَنِها إلَّا هو، وأن يصرف عنه سيِّئَها لا يصرفُ عنه سيِّئَها إلَّا هو.



تحقيق الوسطيَّة

من مقاصد الحجِّ: تحقيق الوسطيَّة الَّتي هي زينة هذا الدِّين وجمال الشَّريعة، فدين الله ﷻ دينٌ وسطٌ ليس فيه غلوٌّ ولا جفاءٌ، وليس فيه إفراطٌ ولا تفريطٌ، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: شهودًا عدولًا، لا غلوٌّ ولا جفاءٌ، ولا إفراطٌ ولا تفريطٌ، وخيار الأمور أوساطُها لا تفريطُها ولا إفراطُها.

والمراد بقوله سبحانه ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: شهودًا عدولًا، لا يميلون عن الحقِّ لا إلى غلوٍّ ولا إلى جفاءٍ، بل يتوسَّطون ويعتدلون، والحجُّ مليءٌ بالمواقف العظيمة والعِبر الجليلة الَّتي

تُرشِد إلى أهمِّيَّة التَّوسُّط وتدلُّ على أهمِّيَّة الاعتدال، ومِن أهمِّ هذه المواقف في هذَا الباب العظيم: النَّظرُ في هدي النَّبيِّ ﷺ وسنَّته في رمي الجمار على ضوءِ ما ثبت عنه ﷺ، ثمَّ النَّظرُ بعد ذلك إلى أحوال النَّاس مع سنَّته؛ فإنَّ حالهم في ذلك بين غلوٍّ وجفاءٍ، وإفراطٍ وتفريطٍ، إلَّا مَن وفَّقَهم الله وأكرمَهُم بلزوم سنَّته، ومتابعة هديِه واقتفاءِ أثره ﷺ.

روى البيهقي في «السُّنن»[1] عن ابن عبَّاسٍ قال: «حدَّثني الفَضل بن عبَّاس قال: قال لي رسولُ الله ﷺ غداةَ يوم النَّحر: «**هَاتِ فَالْقُطْ لِي حَصًى**» فَلَقَطتُّ لَهُ حَصَيَاتٍ مِثْلَ حَصَى الخَذْفِ فوضعتُهُنَّ في يده؛ فقال: «**بأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، بأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ؛ وإِيَّاكُمْ والغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ فِي الدِّينِ**».

فقوله ﷺ في الحديث: «**بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ**» أي: الحصيات الَّتي التُقِطَت له بحجمها المحدَّد في الحديث وهو حجم حصى الخَذف، فاللَّفظ لا يتناولُ الحجمَ الصَّغير الَّذي لا

(١) برقم (١٦٨١).

يُسمَّى حصاةً، كما لا يتناول الحجم الكبير الَّذي يُسمَّى حجرًا، فالمشروع هو التَّوسُّط، ومع وضوح هذا الأمر وشدَّة بيانه فإنَّك إذا قارنتَ ذلكَ بحال بعض المسلمين ممَّن جهلوا سنَّة النَّبيِّ ﷺ تجد منهُم أمرًا عجبًا في هذا الباب بين غلوٍّ وجفاءٍ وإفراطٍ وتفريطٍ وزيادةٍ وتقصيرٍ، والحقُّ قوامٌ بين ذلك، فلا يقصُر المسلمُ عن سنَّته ﷺ شأنَ أهل التَّفريط والجفاءِ، ولا يزيد عليها شأنَ أهلِ الإفراطِ والغلوِّ، وإنَّما يكونُ عدلًا وسطًا.

وقولُه ﷺ: «**وإِيَّاكُمْ والغُلُوَّ**» عامٌّ في جميع أنواع الغلوِّ في الاعتقادَات والأعمال؛ إذ العبرةُ بعُموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبَب، فالمسلم منهيٌّ عن الغلوِّ في كلِّ أحوالِه، ممنوعٌ منه في كلِّ شؤونه، مأمورٌ باقتفاء آثار الرَّسول الكريم ﷺ واتِّباع سنَّته في الأحوال كلِّها.

وهذه الصُّورة الَّتي تتَّضح لنا في هذا المقام بهذا المثال الجليِّ توضِّحُ لنا وسطيَّةَ الدِّين في الأمور كلِّها، فدينُ الله ﷻ

وسطٌ بين الغلوِّ والجفاء والإفراط والتَّفريط، فيخرجُ المسلمُ من حجِّه بفائدةٍ عظيمةٍ ومقصدٍ جليلٍ يتربَّى عليه في الحجِّ بأن تكون أعمالُه دائمًا وسطًا لا غلوَّ فيها ولا جفاءَ، والوسطيَّة إنَّما تكون بموافقَة السُّنَّة، فليَحذَر أشدَّ الحذَر من تجاوز السُّنَّة سواءٌ بغلوٍّ أو جفاءٍ، والشَّيطانُ حريصٌ تمامَ الحرص على عبدِ الله المؤمنِ ليصرفَه عن الجادَّة وليُبعِدَه عن صراطِ الله المستَقيم إمَّا إلى غلوٍّ أو إلى جفاءٍ، ولا يبالي بأيِّ الأمرين ظفِر كما قال بعضُ السَّلف: «ما أَمَر الله تعالى بأمرٍ إلَّا وللشَّيطان فيه نزغتان: إمَّا إلى تفريطٍ وتقصيرٍ، وإمَّا إلى مجاوزةٍ وغلوٍّ، ولا يبالي بأيِّهما ظفِر»، وهو قاعدٌ للمُسلم بأطْرُقِه لا يفترُ ولا يملُّ منَ الكيد له والتَّربُّص به واستفراغِ كامل الوُسْع لإضلاله وصرفِه عن الصِّراط المستقيم والهدي المستَبين.

إنَّ الاعتدالَ في الأمور كلِّها، والتَّوسُّط فيها، والبعدَ عن الغلوِّ والجفاء هو المنهجُ القَويم والصِّراط المستَقيم الَّذي ينبغي أن يسلُكَه جميع المؤمنين كما أمرَهُم الله بذلكَ في كتابه،

وكما أمرَهُم بذلكَ رسولُه ﷺ، فالتَّوسُّط حقًّا والاعتدال هو الأخذُ بالحدِّ الَّذي حدَّه الله ﷻ لعباده بحيث لا يُدخلُ فيه ما ليس منه، ولا يُخرَجُ منه ما هو داخلٌ فيه، فبهذا امتدح اللهُ المؤمنين، فدينُ الله وَسَطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، وخيار النَّاس هُم الوسَط الَّذين ارتفعُوا عن تقصير المفرِّطين، ولم يلحَقُوا بغلوِّ المعتَدِين، بل لزمُوا هديَ سيِّدِ المرسلين وخيرةِ ربِّ العالمين وقُدوةِ النَّاس أجمعين محمَّدِ بن عبد الله صلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.



استشعار منَّة الله ﷻ

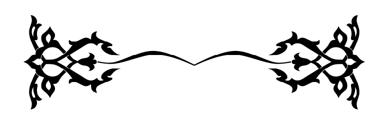
من مقاصد الحجِّ العظيمة: أنَّ فيه تربيةً للمسلم على استشعار منَّة الله عليه بالهداية، وتوفيقِه له ﷻ بأداء الطَّاعة، وأن جعله مسلمًا وجعله حاجًّا وجعَله مُلبِّيًا، وجعَلَه ذاكرًا شاكرًا؛ فهذا كلُّه منَّة الله ﷻ وفضلُه على عبدِه، فلولا منَّةُ الله عليه بالحجِّ لما حجَّ، ولولا منَّةُ الله عليه بأن جعله منَ المصلِّين لما صلَّى، ولولا منَّةُ الله عليه بأن شرح صدرَه لهذا الدِّين لم يكن مِن أهله، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، والهداية منَّةُ الله وفضلُه يؤتيه ﷻ من يشاء، والله ذو الفَضل العظيم.

وأعمالُ الحجِّ وشعائرُه العظيمة تذكِّر العبد بهذَا الأمر وتجعله يستَشعر هذه المنَّةَ الإلهيَّة والهبةَ الرَّبَّانيَّة فيحمد اللهَ على فضله؛ يحمدُ الله أن جعَله حاجًّا، وأن جعَله مُلبِّيًا، وأن جعَله مُسلمًا، وأن وفَّقه لهذه الأعمال وهداه إليها، وانظر في سياق آيات الحجِّ في سورة البقرة قول الله ﷻ: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾؛ أي اذكروا اللهَ مُستَشعِرين منَّتَه عليكم بالهداية وإنجائه ﷻ لكم مِن الضَّلال؛ فلولا منَّةُ الله عليكُم لما اهتَديتم، ولولا إنجاءُ الله لكُم منَ الضَّلال لكُنتُم من الضَّالِّين، وقال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الحج] أي: تعظِّموه وتجِلُّوه أي: مقابلةً لهدايته إيَّاكم؛ فإنَّه يستَحقُّ أكملَ الثَّناء

وأجلَّ الحمد، وأعلى التَّعظيم فمن مقاصِد الحجِّ الَّتي ينبغي أن تُستَحضر فيه أن تذكر منَّةَ الله عليك بالهداية في الحجِّ والصَّلاة والصِّيام والدِّين كلِّه.

هذه أهمُّ وأعظم مقاصد الحجِّ، وأسألُ الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفِّقنا جميعًا للعلم النَّافع والعَمل الصَّالح وتحقيق هذه المقاصد، وأن يزيدَنا بصيرةً في دينه، وأن يوفِّقَنا لما يحبُّه ويرضاه من سَديد الأقوال وصالح الأعمال، وأن يُصلح لنا دينَنا الَّذي هو عصمة أمرنا، وأن يصلحَ لنا دُنيانا الَّتي فيها معاشُنا، وأن يصلحَ لنا آخرتَنا الَّتي فيها معادنا، وأن يجعَلَ الحياةَ زيادةً لنا في كلِّ خيرٍ، والموتَ راحةً لنا من كلِّ شرٍّ، اللَّهمَّ اغفر لنا ولوالدَيْنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات إنَّك غفورٌ رحيمٌ جوادٌ كريمٌ، اللَّهمَّ تقبَّل منَّا إنَّك أنتَ السَّميع العَليم واغفر لنَا إنَّك أنتَ الغَفور الرَّحيم، وتُب علينَا إنَّك أنتَ التَّوَّاب الرَّحيم.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم وبارك وأنعَم على عبد الله ورسوله نبيِّنا محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين[1].



---

(١) أصل هذه الرِّسالة محاضرةٌ ألقيتها في مسجد الخيف في منًى بعد صلاة المغرب من يوم التَّروية عام (١٤٣٠هـ)، وقد فُرِّغت من الشَّريط وأَجرَيت عليها تعديلاتٍ وزياداتٍ وتقديمًا وتأخيرًا، وفضَّلت أن تبقى بأسلوبها الإلقائي كما كانَت في المحاضَرة، والله الموفِّق.

الفهرس

